عنترة التاريخ وعنترة الاسطورة

؟ ٥٢٥ — ؟ ٦١٥

بقلم فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

لا نعرف بين وجوه مَن اكتنفتهم هالات الفخر ، واحاطت بهم إطارات العزّ من ابطال الجاهلية ، وجهاً انبل مظهراً ، واشدّ جاذبيـة لعقول القوم ، فادعى الى اثارة اعجابهم ، واوفر حظّاً باجلالهم ، من ذاك الوجه الاسود اللون ، الصلب العود ، الضخم القسمات ، الغليظ المشفرَين ، الجامع بين عبوسة البطل العنيد ، ولطف الفارس الحليم . حتى أصبح من الصعب على مؤرخ الادب ، اذا تكلّم عن « عنترة التاريخ » ، ان يتخلّص من تلك الخيوط الدقيقة والمتينة التي تحوكها روايات القصّاصين ومعتقدات العامّة حول شاعره ، فتحوّله الى « عنترة الاسطورة » . ولهذا رأينا ان نجتهد ، قبل ان نبدأ درس شاعرنا ، في تحديد كلّ من هذين المظهرين المختلفين ، وفصلهما احدهما عن الآخر ، سواء في حياة الشاعر او في ما نُسب اليه من الشعر .

حياته

عصره

من الشائع في تواريخ الادب ان عنترة توفي سنة ٦١٥[1] ، اي قبل الهجرة بسبع سنوات ، وكان قد أسنّ فتجاوز الثمانين ، على رأي البعض ، وبلغ التسعين

(١) اطلب de Perceval, *Essai sur l'Histoire des Arabes*, t. II, p. 519 — والاب شيخو : شعراء النصرانية ، ص ٧٩٦ . اما من تبعهما من مؤرخي الادب ، فقد اخذوا جميعهم عن الاب شيخو .

على رأي غيرهم ، مما جعل ميلاده حول السنة ٥٢٥ .

اما كون عنترة ادرك من العمر مبلغاً قصياً فهو ما يمكن الاطمئنان اليه بالاستناد الى جميع الروايات[١] ؛ والى ما لا يكاد يُشكّ في نسبته من شعر عنترة نفسه ، كقوله :

اذا اوهى مراسُ الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني (٢ ؛

والى ما استنتجه المستشرق پيرون في بحثه عن مقابلة الاجيال[٣] ، من ان عنترة كان ، من سلسلة نسبه ، في درجة توازي درجة عبدالله ، والد محمد ، فلزم اذاً ان يكون من مواليد الثلث الاول من القرن السادس . فاذا اضفنا الى هذا ما نعرفه من ان عنترة اشترك في حرب داحس والغبراء التي انتهت بين السنتين ٦٠٨ و ٦١٠[٤] ، وانه غزا غزوة كان فيها الحُطيئة الذي ادرك الاسلام وروى لعمر بن الخطّاب شيئاً عن تلك الغزوة[٥] ، وانه كان من اقران عمرو بن معدي كرب[٦] الذي ادرك الاسلام ايضاً ؛ كانت النتيجة ان شاعرنا من المعمّرين حقاً .

واما وفاته فقد يمكننا حصر زمنها بواسطة ما لدينا من المعلومات ، وان قليلة . نحن نعرف ان عنترة شهد حرب السباق المذكورة وابلى فيها . ثم نعرف ، باجماع الرواة ، انه توفي او قُتل بعد ان كبر وعجز ؛ فمن المعقول اذاً ان يكون عاش بضع سنوات بعد تلك الحرب . واذاً فلا يمكننا الأخذ بقول حاجي خلفا ، اذ يجعل وفاة عنترة « سنةً قبل الاسلام »[٧] ، اي نحو السنة ٦١١ . بل يلزم الانحدار بها الى ما بعد ذلك ، الى السنة ٦١٥ التي اشرنا اليها ، ان لم يكن الى ما بعدها ايضاً .

١) الاغاني ٧ : ١٥٣ ـ ـ

٢) المبرّد : الكامل ، طبعة Wright ، ص ١٢٥ . وديوان عنترة ، طبعة ابن لورد ، وهي التي نشير اليها دائماً ، ص ٥١ .

٣) A. Perron : *Lettre sur Antar, J. As. décembre 1840, p. 501-503*

٤) راجع الروائع ٢٥ : ب

٥) الاغاني ٧ : ١٥٣ .

٦) الاغاني ٧ : ١٥٣ .

٧) حاجي خلفا : كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون ، طبعة Flügel ، ٣ : ٣٩٨ العدد ٥٨٨٦ .

منشأه

اسمه – أمّه – لقبه

يختلف الرواة والمؤرّخون بحثّ الاختلاف في سرد آباء عنترة ، فمنهم من يجعل جدّه شدّادًا ، واباه معاوية كابن الكيت[1] ، ومنهم من يجعل اباه عمرًا مع الاحتفاظ بشدّاد جدًّا له كابن الكلبي[2] ، وابي زيد القرشي[3] . ولكن اكثرهم[4] على انه عنترة بن شدّاد ، بن عمرو ، او معاوية ، بن قراد ، احد بني مخزوم من قبيلة عبس ، من مُضر . وقد رُوي له ، في ديوانه ، بيت شعر يذكر فيه اباه شدّادًا وهو

منهم ابي شدّادُ الكرم والـدي والامُّ من حامٍ ، فهم اخوالي (٥ .

على اننا نظنّ ان في صدره تحريفًا مستحدث العهد . اما اصله فهو ، كما اورده ابن قُتيبة :

منهم ابي حقًّا ، فهم لي والـدٌ ، والامُّ من حامٍ ، فهم اخوالي (٦ .

اما امّ عنترة فكانت أمةً حبشية الاصل ، وهو معنى قوله : « والامُّ من حامٍ » ، اسمها زبيبة ، سباها ابوه في احدى الغارات ، فاستولدها عنترة ، فاتى حبشيّ اللون ، مشقوق الشفة السفلى ، فكان يُقال له «عنترة الفلحاء» بصيغة المؤنّث حملًا على تأنيث اسمه ، او على قصد « الشفة الفلحاء » اي المشقوقة . على انّ بروكلمان[7] يشكّ في صحة هذا اللقب ، لانه يعدّه مدعـاة لاحتقار لم يكن عنترة ليرضاه ، وهو الذي وصف ، بشيء من العبث ، رجلًا اعلم ، اي مشقوق الشفة العليا ، في معلقته[8] . ولكن هذا لا يمنع كون الرواة مجمعين تقريبًا على

١) التبريزي : شرح المعلّقات ، ص ٩٠

٢) ابن قُتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٢٠ – والبغدادي : خزانة الادب ١ : ٦٢

٣) القرشي : جمهرة اشعار العرب ، ص ١٨٨ .

٤) اطلب الاغاني ٧ : ١٤٧ – والتبريزي : شرح المعلّقات ، ص ٩٠ – والجمحي : طبقات الشعراء ، ص ٣٥ .

٥) اديب مصري : شرح ديوان عنتر بن شدّاد ، ص ١٢٤ .

٦) ابن قُتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٢٤ . وهكذا ورد البيت في شعراء النصرانية ، ص ٨٥٣ .

٧) Brockelmann, *Antar(a)* - *Encycl. de l'Islam, I, 366*

٨) المعلّقة : ٤٣

الاشارة الى هذا اللقب ؛ وسواء دُعي به عنترة في حياته او لم يُدعَ ، فاننا نراه متناقلاً على الألسن . قال شُريح بن بجير التغلبي :

وعنترة الفلحاء جاء مُلأمًا كأنك فيه من حماة اسودُ (١ !

وكان يكنى عنترة « بابي المغلّس » ومعناه السائر في الظلام ، اشارةً الى سواد لونه . وعُدَّ ايضاً من « اغربة العرب »[٢] للسبب نفسه . اما لفظة « عنترة » فمعناها واحدة العَنْتَر ، وهو الذباب الأزرق . وقد سمي بها ثلاثة من الشعراء اشهرهم صاحبنا . ثم عنترة بن الاخرس او ابن عكبرة الطائي ، وعنترة بن عروس ، مولى ثقيف . وورد ذكر هذين الاخيرين في حماسة ابي تمام[٣] . وذكر الاول منهما في معجم ياقوت.[٤]

ادعاء ابيه اياه – تأثير سواده

نشأ عنترة عبداً يرعى ابل ابيه وهو لا يكاد يؤبه له ، لما كان من عادة العرب في استعباد اولاد الإماء ، حتى اذا انجبوا ، ادّعاهم آباؤهم ، فالحقوهم بنسب القوم. وهذا ما حصل لعنترة في حديث طويل رواه ابن الكلبي ، وملخّصه ان بعض احياء العرب اغاروا على بني عبس فاستاقوا من ابلهم. فتبعهم العبسيون ليستنقذوا اموالهم . فقال شدّاد لابنه : « كرّ يا عنترة ! » فقال : « العبد لا يُحسن الكرّ انما يحسن الحلاب والصرّ . » فقال : « كرّ ، وانت حرّ . » فكرّ وقاتل قتالاً حسناً . فادعاه ابوه ، والحقه بنسبه[٥] .

وان جواب عنترة لأبيه يدلّ على طموح في نفسه الى الحريّة ، وألم فيها ناتج عن رفض سابق بالاعتراف به . مما يرجّح الحادثة الاخرى الواردة في الاغاني[٦] ، والتي نظنها وقعت قبل هذه المعركة . وخلاصتها ان عنترة كان قد اغار مرّةً مع العبسيين على بني طيء ، فاصابوا نعماً . فلما ارادوا القسمة ،

١) المفضل الضبي : المفضليات ، طبعة Lyall ، ص ٧٨٧ – ونقائض جرير والفرزدق ، طبعة Bevan ، ص ١٠٨ ، وقد ذكر فيها « النلبي » ، والصواب « التغلبي » .

٢) هم ثلاثة من فتّاك العرب وفرسانهم سمّوا « اغربة » ، ج. غراب ، لسواد لونهم وهم : عنترة ، وخُفاف بن ندبة ، والسليك بن السُلكة.

٣) حماسة ابي تمام ، طبعة Freytag ، ص ٢٠٦ .

٤) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة Wustenfeld ، ٣ : ٩١٢ .

٥) الاغاني ٧ : ١٤٦ ٦) الاغاني ٧ : ١٤٩ و ١٥٠

قالوا لعنترة : « لا نقسم لك نصيباً مثل انصبائنا لأنك عبـد.» فغضب عنترة واعتزلهم ، حتى مسّت الحاجة اليه فادّعاه ابوه.

وكان لزبيبة اولاد عبيـد من غير شدّاد ، اسم احدهم حنبل ، فعمل عنترة على الحاقهم بقومه ، بعد ادّعاء ابيه اياه ، كما روى الاصبهاني[1].

على انه ظلّ عرضةً لتهكم الكثيرين من ابناء قبيلته ، ولاحتقار الوجوه فيها ، ولحسد ابطالها وشعرائها ، بسبب سواد جلده ، وعدم خلوص نسبه . فكانوا ، على حاجتهم اليه ، لا يدعون فرصة تمرّ الا اقترصوها لتحقيره والحطّ من شأنه . من ذلك ما قاله قيس بن زهير بعد ان هرب العبسيّون امام بني تميم ، وهو سيّدهم ، فدافع عنترة عن قومه دفاعاً مجيداً ، فما كان من قيس الّا ان قال : « والله ما حمى الناس الّا ابن السوداء ! »

والى هذه الاشارات والتلميحات المؤلمة ، التي تعدّدت كثيراً في حياته حتى استغلها واضع «سيرته» استغلالاً عجيباً ، اشار عنترة في عدة ابيات من شعره ، منها قوله :

اني امرؤ من خير عبس منصباً شطري ؛ واحمي سائري بالمنصلِ
واذا الكتيبة احجمت ونلاحظت ألفيت خيراً من مُعمٍّ مخولِ

مآتيه

تكاد تنحصر مآتي عنترة في الغزوات المطّردة التي كان يقوم بها على جيرانه من طيء وغطفان وحنيفة ومن اليهم ، وفي مواقف الدفاع الكثيرة التي كان يقفها لدى هجمات الاعداء . لأن غزوات العبسيين المتعدّدة كانت تتطلب ثارات متعدّدة ايضاً ، ولم تكن القبائل المعادية لتتخلّف عن القيام بها . ولعلّ اشهر هـذه المناوشات كانت حرب السباق ، او حرب داحس والغبراء التي ذكرناها بالتفصيل عند كلامنا عن زهير بن ابي سُلمى[2] . وهكذا فقـد قضى شاعرنا حياته ، شاكي السلاح ، على ظهر جواده ، مستعدّاً للطوارئ.

واذا اضفنا الى هذه الحالة المجلبة للفخر والجهلة ، حبّه لابنة عمه عبلة حباً مماثلاً مسير المثل ، على ما بينهما من اختلاف اللون والمنشأ ، كدنا نذكر اهمّ

١) الاغاني ٧ : ١٥١ ٢) الروائع ٢٥ : ي و با

مسببات شعوره ومستدعيات صور خياله. فان اكثر ما قال عنترة من الشعر ، وما نُسب اليه ، ان لم نقل كلّه ، يدور حول معاركه وبطشه فيها ، وحبه لعبلة واجتهاده في لفت نظرها الى مآتيه العالية وصفاته السامية التي تبرز في نظره سواد لونه ، وشوائب نسبه ، كما سنرى.

موته

ذكرنا ، في اول هذا الدرس ، اجماع الرواة على كون عنترة من المعمّرين ، ثم استنتجنا انه توفي حول السنة ٦١٥ ، ان لم يكن بعدها قليلاً . اما كيفية موته فاختُلف فيها. واشهر الروايات في ذلك ثلاث ، الاولى منها عن ابن الاعرابي والمفضّل ، وابن حبيب ، وابن الكلبي ، بطريق ابي سعيد السكري ؛ والثانية عن ابي عمرو الشيباني . وكلتاهما تُفيد ان عنترة مات قتيلاً . والثالثة عن ابي عبيدة . وجميع هؤلاء الرواة من مشهوري المطلعين على تاريخ العرب ، فرأينا ذكر اقوالهم ملخّصة كما رواها الاصبهاني[1] وتناقلها عنه الادباء.

الرواية الاولى

اغار عنترة على بني نبهان من طيّء . فاطرد لهم طريدة ، وهو شيخ فجعل يرتجز ، وهو يطردها ، ويقول :

آثار ظالانٍ بقاعٍ مُحرَّبِ

وكان وزر بن جابر النبهاني ، الملقب « بالاسد الرهيص » على قول ابن الكلبي ، في مضيق يرصده ، فرماه ، وقال : « خذها ، وانا ابن سلمى ! » فقطع مطاه . فتحامل عنترة بالرمية حتى اتى اهله ، فقال ، وهو مجروح :

وان ابن سلمى عنده ، فاعلموا ، دمي وهيهات ! لا يرجى ابن سلمى ، ولا دمي !
اذا ما غشي بين اجبال طيّء مكانٌ الثريا ، ليس بالمتهضّمِ ؛
دماني ولم يدهش بأزرق لهذمٍ عشيّة حلّوا بين سَنفٍ ومخرمِ

ولقد صحّ قول عنترة ، فلم يأخذ قومه بثأره. وعاش قاتله ، وزر بن جابر ، الى ما بعد الهجرة ، فكان احد الموفدين من قبل الطائيين الى محمد حوالي السنة ٦٢٩[2].

---

١) الاغاني ٧ : ١٥٣

٢) النويري : غاية الارب – ذكرها Perceval, *op. cit. t. II. p. 520*

الرواية الثانية

ذكرها ابو عمرو الشيباني ، وملخصها ان عنترة غزا بني طيء مع قومه . فانهزمت عبس . فخرّ عن فرسه ، ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب . فدخل دغلاً . وابصره رببنة طيء ، فنزل اليه . وهاب ان يأخذه اسيراً ، فرماه ، فقتله .

الرواية الثالثة

عن ابي عبيدة ، مفادها ان عنترة كان قد أسنّ ، واحتاج ، وعجز لكبر سنه عن الغارات . وكان له على رجل من غطفان بكر من الجمال . فخرج يتقاضاه اياه . فهاجت عليه ريح ، وهو بين مامين لعبس اسهما شريج وناظرة ، فأصابته ، فمات في الطريق . ونقل عن ابي عبيدة ايضاً « ان طيّئاً تدعي قتل عنترة ، ويزعمون ان الذي قتله الاسد الرهيص ، وهو القائل :

انا الاسد الرهيص قتلتُ عمرًا وعنترة الفوارس قد قتلتُ ! »(١

وعندنا ان البيت مصنوع ، صُنع ليدعم الرواية الاولى التي مال اليها اكثر الادباء ، لاسيما بعد ان وُضعت « سيرة عنتر » واختار واضعها الاسد الرهيص قاتلاً لبطل قصته ، بعد ان غيّر في الحادثة وبدّل .

ومهما يكن من الأمر ، فان المستخلص من الروايات الثلاث اتفاقها على ان عنترة شاخ وضعف ، فكان عجزه سبباً مهماً في موته . وليست الرواية الثالثة التي تصوّر لنا ذاك البطل المقدام ، الذي طالما غزا وسلب فوهب واجزل ، يُصبح عاجزاً عن قيل ما يقيم معاشه ، فقيراً معدماً حتى انه يتذكر جملاً له على بعض الاعراب ، فيقوم ليطالب به ، فيقطع شقة بعيدة لا يقوى فيها على مقاومة العناصر ، فيموت في الطريق عجزاً وفقراً وانقطاعاً عن القوم الذين طالما ساروا وراءه الى المعارك فربحوا الاسلاب بواسطته ، ليست هذه الرواية البسيطة باضعف تأثيراً ، واقلّ شجىً ، من الاوليين ، في نهاية حياة ذاك البطل العظيم .

(له صلة)

١) البغدادي : خزانة الادب ١ : ٦٢